

الإسراف فى طبقات العمال

الكسب المؤقت خطر شنيع

للأستاذ فايد العمروسى

أظن أن أجر " الترام " فى الدرجة الأولى شىء ليس بالعسير ، وأن فى مقدور الذين تعودوا أن يركبوا " الترام " أو غيره أن يدفعوا هذا الأجر دون مضايقة لجيوبهم أو إرهاق لميزانيتهم ، ولقد كنت يوماً من هؤلاء الذين لا ترهقهم هذه الملايم الزائدة فقصدت — كعادتى — إلى الدرجة الأولى فى الترام ، فإذا " بالصالون " ستة أشخاص ، وكأهمهم يلبس سترة العمل على اختلاف أنواعه ! ! ولقد حسبت أنها صدفة من الصدفة التى تقع تحت العين فى مظاهر الحياة اليومية ، أو أنه نوع من التبدل ولو مرة فى الأسبوع أو الشهر لهذه الطوائف التى ما تعودت فى بلادنا إلا شطف العيش وقسوة الحياة ، ولكن هذه الصدفة تكررت وتكررت فى كل يوم ، وفى كل ترام ، وفى كل وسيلة من وسائل النقل من سيارة وعربة وإقطار ! ! فأيقنت أن هذه الظاهرة التى حسبتها أول الأمر مصادفة وتبدلاً ما هى إلا عادة لهؤلاء الطوائف ولدتها ظروف الحرب بما فيها من عمل ومكسب دائم لا يتقطع ليلاً ونهاراً !

وليس من حق أن أظن أو أعجب لمثل هذه المظاهر ، فطوائف العمال قوم أنا أحبهم وأجلهم وأعطف عليهم وأتمنى لهم ولأسرهم كل خير ونهوض ، ولقد فطنت الحكومات المتعاقبة إلى ضرورة تحسين أحوالهم فزادت فى أجورهم ونظمت أوقات عملهم وسنت القوانين الصارمة التى تحميهم من استبداد أصحاب الشركات وأرباب الأموال ، ولست بصدد تعدد ما صنعتته الحكومة لهم إلا بقدر هذه الإشارة الخفيفة ولكنى بصدد تحجيل نفسى لحالة هذه الطوائف فى مظاهرم الحاضرة تلك المظاهر التى طفرت بهم من السير على الأقدام ، إلى ركوب الترام فى الدرجة الأولى ، ثم إلى ركوب السيارات والعربات ، ثم إلى ارتداء الملابس الأفرنكية ، وكل هذا فى إسراف وبدخ وبدل لا يتفق مع الحكمة والتصرف لأشغالهم . . !

سمعت حديثاً من بعضهم — وكنت فى سيارة عامة — خرجت منه على أن ثلاثة منهم سيتناولون طعام العشاء فى مطعم نخم بالقاهرة أخشى أن أشميه فيكذبنى القراء ! ! وفهمت منه أن هؤلاء الثلاثة أنفسهم سيقضون سهرتهم بعد العشاء فى سينما " الكورسال " !

وسمعت حديثا آخر من جماعة آخرين أن كل واحد "فصل بدلة" ثمنها اثنا عشر جنيها واشترى حذاء ثمنه جنيهان وأشياء أخرى يختلف ثمن الواحد منها من جنيه إلى نصف الجنيه ، هذا ما سمعته أذنأى من قوم لا أعرفهم ، ومن كلام ليس فيه سمة الكذب ولا طابعه ، وإنما فيه روح الاطمئنان وعدم المغالاة ، وأما ما رأته عينأى ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم في مظاهر هذا الإسراف فكثيرون ، وكثيرون جدا ! !

وليس هناك تمليل لمظاهر هذا الإسراف والتبذير في طبقة العمال إلا أمران :

أولها ظروف هذه الحرب واتساع نطاقها مما أوجد العمل الكثير الذى يتطلب أيادى كثيرة بأثمان باهظة وأجور مرتفعة ، ومن هنا وجد العامل النقود تناسب عليه انسيابا يفوق نسبة الغلاء وارتفاع الأسعار ! !

ثانيهما شعور هذه الطبقة بالرخاء بعد العسر ، والوجدان بعد الفقد ، فهم إذ يسرفون اليوم فى النفقات فانما يعوضون ما ذاقوه من ضنك فى الماضى وحرمان من متع الحياة ، وهم بهذا التبذير ينتقمون — انتقاما غير مقصود — من الطبقات الأخرى الذين تيسر لهم الحياة فى السلم والحرب ، والذين كانوا يشمخون بأنوفهم على غيرهم من الطبقات الفقيرة العاملة التى تكذب وتضنى وتتعب تعباً شريفاً مجدياً .

ولن يستطيع مخلوق أن يعترض أو يتكر على هذه الطبقة أن تمتنع وتعيش كما يعيش ويتمتع كل مخلوق فى الدنيا ، فهم أناس تقوم على جهودهم أسس العمران فى الحياة ، وهم القوى النابضة التى بها تنهض الشعوب وتسير فى مضمار الحياة فى تطورها وتقدمها ، وإنما الذى ننكره على العامل أن ينسى الأمس ، ويقفل عن القدر ، ولا يعرف إلا يومه الذى هو فيه ، لو عرف العامل أن حياته قبل الحرب كانت قاسية عنيفة ، وأن ميادين العمل كانت ككرة ضيقة ، وأن الأجور كانت زهيدة شحيحة ، وأن الأيدى العاملة كانت ضئيلة محدودة ، لو عرف كل ذلك لترث قليلا فى الاندفاع فى النفقات .

لقد كان العامل قبل الحرب ضرخة محزنة وأنيبا أليما فى كيان الأمة ، كان يتقاضى الأجر الزهيد وهو موعول فيعيش ، وكان يتعطل عن عمله أياما وأسابيع فيعيش ، وكان يفرحه زيادة القروش والقروش فى اليوم فيعد هذا نعمة هبطت عليه من السماء فيتلقاها بالأكف الضارعة إلى الله بالحمد والشكران ، كان يقنع باللباس الممزق ، وبالعيش القفار ، وبمسيره ساعة وساعتين إلى محل عمله دون أن يتعب أو يسأم ، أو دون أن يبطر ويتدال ، وهذا ما جعله فى نظر الناس والهيئات والحكومات رجلا جدرا بالمعطف والرعاية ، وخليقا بالاصلاح والاعتراف بحقوقه المنقوصة حتى نالها أو نال معظمها حين فطنت الحكومة إلى

غبنه واعتدت بحل مشاكه في هذه الظروف . عامل كهذا لو أحس ما كان فيه ثم قارن بين ماضيه وحاضره خليق به أن يقتصد في النعمة فلا يبذرهما وأن يتمتع برزقه الجديد بحكمة وتشكير ! ! .



والعامل الآن ينحدر في تيار الإسراف وهو منحدر الأعصاب يجيوبه المملوءة ، هو منبهير بكبرة الأوراق المرققة التي يحشو بها جيوبه كل يوم ، إنه يفكر في يوفه فقط ، لقد مات الأمس من عمره فليمت في فكره أيضا ، أنه لا يفكر في الغد ! الغد المعلوم في حساب علماء الاجتماع والاقتصاد وإن كان مجهولا في نظر الفلاسفة والشعراء ! .

لقد قرأنا ما كتبه المؤرخون في وصف العالم بعد الحرب الكبرى الماضية من حيث البطالة والعمل ، فإذا مشا كل العمال هي العقد التي لا تحل ، والتي تعبي العلماء والعباقرة وتجهدهم وتستعصى عليهم ، لقد تعطلت ملايين الأيدي العاملة ، وتحولت المصانع الحربية أو بعضها إلى ما كانت عليه قبل فأصبحت لا تفي حاجاتها بمطالب الجيوش المتعطلة ، ومن هنا نشأ الجوع والمرض والفقر والتشرد والإجرام ، بل لقد نشأ الاختلاط ونفشت الأوباء الخلقية بسبب الهجرة وأمثالها مما لا زلنا نعاني متاعبه حتى اليوم ، وبالقياس على نتائج ما بعد الحرب الماضية نستطيع أن نوقن بأن ما بعد الحرب الحاضرة سيكون أقسى وأشد ، بل سيكون البلاء الأليم الذي يززع البشرية ويعتم الحياة ويززل كان العيش ، وإن المفكرين من العباقرة ليسهرون ليلهم ويقومون نهارهم في الوصول إلى علاج الأزمات والمشاكل التي يستنشا حتيا بعد الحرب ، حتى أنهم سموها "مشاكل السلم" .

ومن أهم هذه المشاكل وأعنفها مشاكل العمل والعمال ، ففي اللحظة التي توقع فيها معاهدة السلم العالمي ستقف فوراً ملايين الآلات في آلاف المصانع ، فكم من الملايين العاملة ستقف حتيا بوقوف هذه الآلات ؟ إن مطالب الحرب غير مطالب السلم ، وإن نفقاتها وتضحياتها غير نفقات السلم وتضحياته ، وإن الذين يشتغلون اليوم ليلهم ونهارهم فيتقاضون أجورا عالية مضاعفة سوف لا يجدون في المستقبل - إلا القليل منهم - عملا يشغلهم لا ليلا ولا نهارا ، وسوف لا يجدون أجورا بأزهد ما تكون الأجور .

فعلی طبقة العمال أن يقتصدوا من اليوم لاغد ، وعليهم أن يفكروا في شبح المستقبل الأسود عل في بشاعته ما يخيفهم منه ، وعلهم إذا خافوا أن يمسكوا أيديهم عن البسط المجنون ، وأن يتساجوا بما في أيديهم الآن من الثروة ليواجهوا بها هذا الشبح المخيف ستين أو ثلاثا على الأقل حتى يبدأ العالم ويتمكن من السير في نظام جديد .

إني لأحزن وأتململ حين أرى العامل يبغثر كل ما في يده في يومه حاملا أن الغد القريب سيأتي من جديد ، إني لأتخيل هذا العامل المشغوف بالتبذير والإسراف في هذه الظروف خصوصا عاطلا كثيرا في المستقبل فأحزن وأغتم ، لأنه لم ينتفع من اليوم الأبيض لليوم الأسود كما يقولون ، ولأنه بهر الحاضر بيريقة فعسى عن المستقبل وظلامه ! !

وإسراف العامل في هذه الظروف تصرف مطابق للطبيعة المفسرية كل المطابقة ، فالطبع المفسري مسرف في كل شيء ، مسرف في اليقين والشك ، مسرف في الفرح والحزن ، مسرف في الثناء والفتاؤل ، مسرف في الوصل والهجر ، مسرف في كل المتناقضات ، وتبدله من هذا الى ذلك سريع كل السرعة ، ذلك لأنه يتقبل كل جديد بعواطفه وميوله المتعطشة اليه دون إعمال الفكر والتفهم ، وتلك ناحية نقص لا شك في طبائنا قد تمحوها الأزمات والتجارب حين يمر بنا الجليل بعد الجليل ، وحين نستفيد من الثقافات المختلفة والتجارب العملية ما يربى فينا روح التروى والتبصر والادراك والنظر الى العواقب .

وتمت ناحية أخرى خلقها ظروف الحرب أو الكسب المؤقت ، وهي ناحية مؤذية إن لم نتداركها بالعلاج ، ذلك أن كثيرا من الأيدي العاملة الآن لم يكونوا عمالا ولا أرباب مهين قبل الحرب ، ولكن الكسب المؤقت أغراهم فاتتهزوه وتركوا أعمالهم الأصيلة والتحقوا بميادين الأعمال في هذه الأيام ، وهؤلاء يعدون بالآلاف أعرف منهم الموظف الذي استقال والتلميذ الذي ترك دراسته والتاجر الصغير الذي أغلق حانوته والزارع الأجير الذي ترك مزرعته والنجار والحداد والحائك وأمثالهم ، هؤلاء تركوا مهنتهم الضيقة ليشتغلوا عمالا في الدوائر الحربية طمعا في اكتسب المؤقت ، وهذا حسن لا غبار عليه لو أنهم استفادوا في هذه الظروف واقتصدوا بعضا من هذه الفائدة للمستقبل الذي ينتظرهم ، ولو أنهم صنعوا ذلك فاستغلوا القرض وانتفعوا بها وتسلموا بخيرها ليواجهوا بها ظروف ما بعد الحرب ما كان في عملهم هذا إلا كل خير ونفع ، وما كان في تفكيرهم هذا إلا كل إصابة وتوفيق .

غير أن المحزن كما قلت إنهم يسرفون ويمعنون في الإسراف ، وأن ما يكسبونه اليوم يذهب بنهاب النهار ، وأنهم يستقبلون كل يوم جديد كأنهم لم يكسبوا بالأمس شيئا ، وهم قوم يؤمنون بالتواكل ويمتقدون أن لكل يوم رزقا جديدا ينزل عليهم من السماء في مواعد كالتي نزلت علي الأنبياء ، وهم متشبعون بالمثل القائل "أصرف ما في الجيب... الخ" والرزق على الله !! ولا تفكر في "بكرة" ولست أدري من أين تشبعوا بهذه الفاسفة وهم غير فلاسفة؟ ولعلهم فهموا خطأ قول المعري إن كان قد سمعوا به :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ومع ايماننا بأن لكل يوم رزقا جديدا فلاني أحب أن يعلم المتوالكون والمسرفون ، أن الرزق دائما نتيجة للعمل والجهود، وان الشريعة الفراء لتغضب كل الغضب على المتواكلين الذين يشوهون مبادئها العالية بأفهامهم السقيمة ، الرزق لا يهبط على الناس كالجراد يهبط على الحقول ، ولكنه يهبط على الأيدي العاملة ، وينزل على الأفكار التي تميل الى السعي والطلب وتحترم النعمة فلا تبعتها ذات اليمين وذات الشمال ، وفي الحديث القدسي " يا عبدي حرك يدك أنزل عليك الرزق " .

وفي الحديث النبوي " اعمل لدينك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " وفي القرآن الكريم : " ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " وأحب أن يعرف المسرفون من طبقات العمال في هذه الأيام أنه ليس بمستحيل أن يموت الانسان جوعا اذا هو لم يعمل ؛ واذا هو لم يقتصد من روائه لضيقه ، ولقد حدثنا التاريخ عن ضحايا الجوع بعد الحرب الكبرى وعمما فعله ضيق العمل بالأيدي العاملة .

وأحب أن يفهموا أن " الرزق على الله " هذه جملة لها معنى أسمى وأبلغ مما يفهمون ، وأن الله جل شأنه لا يعصفي من عباده المتواكل الجاهل الذي لا يفكر في مستقبله ومستقبل أولاده ، والذي لا يتبصر في الإنفاق بروية وفهم وقناعة !

يعتقد المسرفون من طبقات العمال وأمثالهم ان هذه الأيام فرص للتمتع والتنعم ، وأنها فرص للظهور في عالم المظاهر ، فرص لاقتناص ما كان ممنوعا عنهم في حياتهم الأولى ؛ وكأنهم قد آمنوا بمن قال :

تمتع بها ما ساعفتك جدودها فإكل حين صفوها لك شامل

والواقع أن هذه الأيام فرص لهم ولأمثالهم ، ولكنها ليست فرصا للتبذير والبعثرة بحساب وبغير حساب ، وإنما هي فرص للانتفاع والاقتصاد للأيام المقبلة كما قلت ؛ وهي فرص جقا ينتفع بها العمال في الشعوب التي تعرف كيف تتحين الفرص الذهبية ، وكيف تستفيد من تقلب الأحوال والأوضاع الدولية في كل العصور .

وأظن أنه ليس من الخير أن تترك هذه الطوائف وأمثالها في انحدار الاسراف والتبذير وأن من الحكمة أن يقوم المفكرون بتبصيرهم الى الطريق التويم وأن يرسموا لهم أوضاع المناهج التي يسلكونها في هذه الأيام لتفقيهم من شر المستقبل القريب .

وأرى من الوسائل التي قد تبصر هذه الطوائف بالحقائق وتحدد من اسرافهم ما يأتي :

أولا - الكتاب الذين يعالجون المشاكل الاجتماعية في هذه المجلة عليهم معظم المسئولية في توجيه هذه الفئات وتنوير أذهانهم ولفتهم الى ما يجب أن يتبعوه في هذه الظروف وإن

جنون الاسراف فيهم لمن أخطر المشاكل الاجتماعية ، التي يجب أن تعالج من الآن لأنها لو تركت لاستفحلت يوما بعد يوم ، ولتفاقم ضررها الذي قد يستعصى على المفكرين فيما بعد ، وان الصحف الأخرى بما فيها من هيئات تحريرها وإشراف على الشؤون العامة لمسئولة أيضا عن معالجة هذه الحالة التي برزت بروزا شديدا في هذه الأيام .

ثانيا - الاذاعة عامل مهم وأهم الوسائل في إيصال الإرشاد الى هذه الطوائف ؛ والمذيعون الذين يلقون علينا كل يوم محاضرات عن العالم في اسبوع مثلا هم أولى الناس بأن يفتنوا الى هذه الناحية وأن يتناولوها في موضوعاتهم ، وأظن أن قسم الاذاعة بوزارة الشؤون الاجتماعية ليتحمل النصيب الأكبر من هذه المسؤولية ، فعليه أن ينظم اذاعتين كل أسبوع على الأقل توجه الى طبقات العمال ومن في مستواهم ممن يكسبون بلا حساب ويسرفون بلا حساب على أن تكون الاذاعة في مستواهم الفكري ؛ وأن تحتوي على أرقام واحصاء ومقارنة ومثل من الحرب الماضية لتكون عبرة لنا في هذه الحرب .

ويجب أن يحتم على المصانع أن يكون في كل منها جهاز استقبال لهذه الاذاعة ، وأن تكون الاذاعة في وقت العمل نهارا أو ليلا حتى يسمع كل عامل ما يلقي عليه من الارشادات ، وفي الواقع إن العامل في هذه الأيام لقي حاجة الى قيادة تنظم حياته المادية حتى نأمن عليه العثور في المستقبل الذي ينتظره .

* *

ثالثا - خطباء المساجد والوعاظ مسئولون أيضا في هذا الصدد ، وما أجمل لو فطن خطيب الجمع الى هذه الناحية فيعالجها علاجا دينيا واضحا ، ثم يوجه خطبته الى المصلين في إرشاد ونصح ، وإن تأثير خطب المساجد في نفوس السامعين ، إذا كان الارشاد عمليا لا يبلغ أثرا وأعمق نفعا إذا كان له مساس بحياتهم وفيه حرص على مصالحهم الدنيوية ، وواجب الوعاظ الدينين الذين يعظون الناس في المساجد والمحافل العامة جزء من هذه الوسائل التي يجب أن نعتني بها ونبرزها نشطة حارة في هذه الظروف الدقيقة الخطيرة .

وإذا حسن للحاضرين أن ينشئوا بحوثهم في الأدب والفن والتربية وأمثال هذه الشؤون فإنما يجمل بهم ويحسن كل الإحسان أن ينشئوها أيضا في هذه المشكلة وأن ينظم في كل أسبوع محاضرتان على الأقل في المنتديات ، وأن يدعى اليها العمال للاستماع والانتفاع .

رابعا - عرض الأفلام في دور الخيالة بحيث تكون خاصة بحياة العمال في الماضي والحاضر ، وبحيث تحتوي صورا ناطقة بحياتهم بعد الحرب الماضية ، وأن يكون مغزاها واضحا في أذهان المتفرجين ، وأن تشمل قصصا واقعا أو موضوعا لنتيجة الإسراف والتبذير

حتى يكون ذلك العرض شبيهاً مخيفاً في نفوس المسرفين ، وعلى هذا التحذير مانع من اليد أن تبعثر ، وموقف للعقول التي تترنح بنشوة الكسب غير المحدود غافلة عن مستقبلها المتظر ناسية ماضيها القريب .

خامساً - نظام الادخار في الشركات ، وذلك بقوانين تسنها الحكومة وتفرضها على أصحاب العمل والعمال باقتطاع نسبة خاصة من الأجور تحفظ لكل عامل باسمه وأن يكون هناك من القوانين ما يضمن انتفاع العامل بها بعد الادخار ، وما يطمئنه على ردها إليه كاملة غير منقوصة ، وما أظن إلا أن العمال سيغتبطون بنظام كهذا ما دامت فيه مصلحتهم ، وفيه شيء اسمه " نقود " ستحفظ لهم وترد إليهم ولو طال عليها الزمان .

ويتساوى في هذا وذاك من الوسائل نظام التأمين الجبري أسوة بالعمال في البلاد الأوربية ونظام فرض ضرائب تسمى ضرائب الادخار تكون بنسبة خاصة في الأجور العالية ، وهذه تتولاها الحكومة كنظام مالي يشبه نظام " المعاشات " لموظفين ، وما أظن أن عاملاً يمانع في عمل كهذا يحفظ له ولأسرته حياته ، ويقية شر تطورات الزمن ، ويطمئنه على مستقبله حين تعطل يده أو تضمحل قواه .

ونقابات العمال تستطيع بمساعدتها إبراز هذه الوسائل والنهوض بها المصلحة العمال وتستطيع في الوقت نفسه بما لها من نفوذ أن تهيب العمال لقبول هذه المقترحات ، والنقابات التي كانت في الماضي تطالب برفع الأجور للعمال عليها الآن وقد ارتفعت الأجور بما قرره الحكومة وبما أحدثته ظروف الحرب ، عليها الا تغفل عن حياة العامل المادية المبعثرة الآن دون حساب ، وهي في سعيها أن تقترح لهم من النظم ما تشاء وأن تطلب موافقة الحكومة عليها بحيث تكون هذه النظم في دائرة معقولة تضمن لهم ادخار شيء مما يكسبونه الآن وتمقف من تيار هذا التبذير الجارف والاسراف المفقوت .

هذه كلمة لا بد منها خلقها الإسراف في الطبع المصري الذي نشاهده الآن واضحاً جلياً في حياة العمال المادية ، بل في حياة الفقراء عامة ممن يكسبون الكسب المؤقت في هذه الظروف ، ولعل ما فيها من وسائل العلاج يلفت نظر المسؤولين إلى التفكير في هذه المشكلة ، ولعلهم أن يعملوا بها إن وجدوها صالحة ، وإلا فلا أقل من أن تكون نواة يقوم عليها الإرشاد والإصلاح .

فايد العمروسي